

الجرد الوطني للتراث الثقافي الأمازيغي

بطاقة جرد عنصر رقم 3/058

1- تحديد العنصر

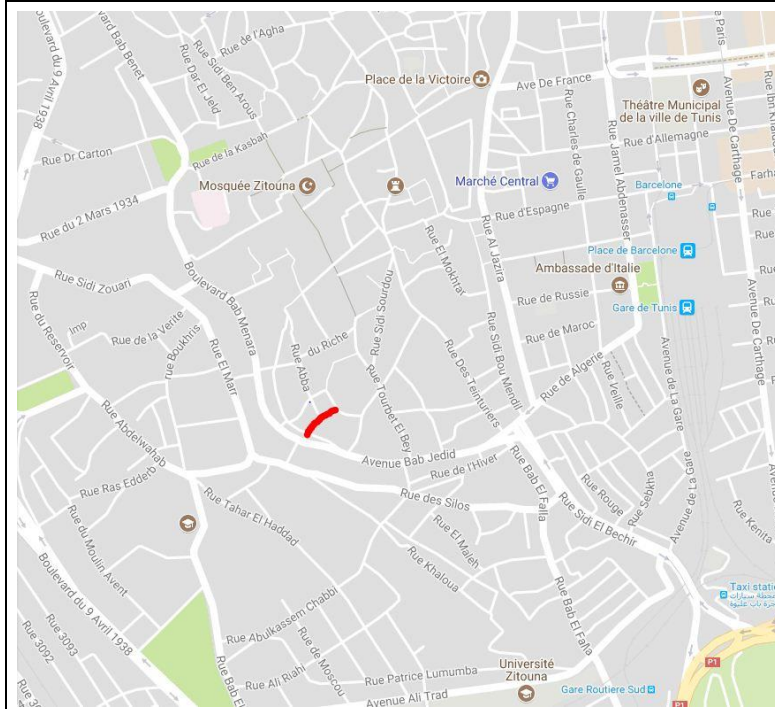
- الاسم العنصر

السبحة: المهارات والطقوس المتعلقة بها

- أسماء أخرى متداولة في المجتمع المحلي

المسبحة، وهي كلمة عربية فصحي تسربت إلى الدارجة ويحدث أن تستخدم، في أحيان قليلة، من قبل بعض الأفراد.

- الإطار الجغرافي لانتشار العنصر



سوق الحدادين، مجال انتشار صناعة السبحة بمدينة تونس.

تقتصر صناعة السبحة، كاختصاص حرفي قائم بذاته، على مدينة تونس، حيث ينتصب بها دكان وحيد يوجد في نهج الحدادين بباب الجديد. لكن من حيث هي نشاط حرفي تكميلي أو غير منتظم أو هي نوع من الهواية والفن، ثمة عديد الأشخاص الذين يمارسون هذه الصناعة. أما في جوانبه الطقسية، فلا يزال العنصر يحظى بالانتشار في شتى جهات البلاد بوصفه جزءا من الممارسة الدينية بوجه عام.

- مجال أو مجالات انتماء العنصر

- الممارسات الاجتماعية و الطقوس و الاحتفالات.
- المهارات المرتبطة بالحرف التقليدية.

2- وصف العنصر

- الوصف التفصيلي

• لمحة تاريخية

يرجع أصل السبحة إلى القلادة التي كانت تتألف من مواد طبيعية مختلفة (حجارة، عظام، عاج...) حيث اتخذت للزينة، فالسبحة في حقيقة الأمر هي تطور طبيعي للقلادة. عرف السوماريون ببلاد الرافدين السبحة منذ الألفية السادسة قبل الميلاد إلا أنه لا يعرف بالضبط متى تمّ التحول في استخدام القلادة من قلادة عادية إلى سبحة تستعمل في الأغراض الدينية والدينيوية. قد اشتقت هذه التسمية من كلمة التسبيح الواردة في القرآن الكريم. وتقد استعمل العرب السبحة معتمدين في صناعتها على مواد خامّة عدّة على غرار البذور والقواقع البحريّة والحصى.

وقد ازدهرت صناعة المسبحة كما يقال لها في الشرق زمن الدولة الفاطمية في القاهرة المعزوية ومن أشهر السبحات في التاريخ الإسلامي سبحة زبيدة بنت أبي جعفر المنصور وتكمن شهرتها في جودة صنعتها وقيمة المادة الخام وغلاء ثمنها، نفس الشيء بالنسبة لسبحة الخليفة العباسي هارون الرشيد

تتمثل صناعة السبحة في تشكيل مجموعة من الحبات ذات أحجام وأشكال هندسية مختلفة (كروية- مخروطية...) يبلغ عددها ثلاثة و ثلاثين أو تسعة و تسعين أو مائة و ذلك بحسب اختلاف أنواع السبحة يفصل بينها أقراص و يربط بينها خيط يتألف بدوره من عدّة خيوط (ستة خيوط) يتمّ برمجها مع بعضها البعض للحصول على خيط واحد تختلف سماكته بحسب حجم الحبات. تكون الحبات ذات ألوان متنوّعة (بيضاء- حمراء- سوداء- صفراء-بنية ...) تصنع من مواد مختلفة (عظم- خشب - قماري- صندل- أبنوز- زيتون- عناب- ریحان- عاج- عنبر- مرجان...) كما يمكن صنعها من الكهرمان أو من اليسر أو من البلاستيك.

تتكوّن السبحة من :

- المئذنة : هي قطعة تفصل بين حبات السبحة و قد سميت كذلك لأنها تشبه المئذنة.

- الوقافة : تستخدم عند عدد معين أثناء التسبيح.

- العداد : عبارة عن قطعة خيط ممتدة من السبحة بها عشر حبات صغيرة تصنع عادة من مادة الحبات.

• مراحل صناعة السبحة

تمرّ صناعة السبحة بمراحل متعاقبة لعلّ أهمّها التفصيل والتنجير والتقطيع و التخريم وتهيئة فرمة على الخراطة والتلميع و التنظيم.

- التفصيل : بمعنى تفصيل الشجرة أو قطعة خشب كبيرة بواسطة منشار أو Toupie إلى قطع صغيرة بحسب الحجم المطلوب.

- التنجير : بمعنى إزالة الزوائد بواسطة القادومو خاصّة بالنسبة للعظم، العاج، الأبنوز، الكوك

- التقطيع : أي تقطيع قطعة الخشب أو العظم إلى حبات و هي حبات السبحة بواسطة المربع.

- التخريم Ajourage: و نعني به حفر حبات السبحة بواسطة مثقب (mèche)، و من ثمة تطعيم الفراغات بواسطة مادة مغايرة مثل : الصدف و العاج و الذهب و الفضة.

- عمل فرمة على الخراطة: و هو ثقب الشاهد أو الحبة بواسطة المثقب لتمرير الخيط الناظم لحبات المسبحة كلّها.

- التلميع : إضفاء بريق على السبحة بحكّ الحبات باستعمال صنف خشن من الورق (الكاغظ الأحرش) و باستعمال مواد أخرى مثل نجارة العظام بالنسبة للسبحة من العظام أو الزبد بالنسبة لسبحة العنبر كما تستعمل عطورات و زيوت مختلفة...

- "التلظيم" : وهو إدخال الحبات في الخيط وفق نظام يراعي نوع السبحة حسب الطرق الصوفية أو حسب رغبة الحريف.

• أنواع السبحة حسب الطرق الصوفية

تستعمل السبحة بكثرة من قبل الطرق الصوفية لأداء جملة من الطقوس كالذكر و التسبيح و غيرها و تختلف هذه الطقوس باختلاف الطرق و هو ما يفسّر وجود أنواع من السبحة تختلف بينها بحسب عدد حباتها فنجد :

- سبحة تتألف من تسعة و تسعين حبة مع شاهد كبير معشاهدين صغيرين و هي تستعمل من قبل أتباع كلّ من الطريقة القادرية و الطريقة الشاذلية.
- سبحة تتألف من مائة حبة مع شاهد كبير مع خمسة شواهد صغار، وهي تستعمل من قبل أتباع الطريقة التيجانية.
- سبحة تتألف من مائة حبة مع شاهد كبير مع ثلاثة شواهد صغار منتشرة في الجنوب الغربي التونسي، وقد عرف باستخدامها أتباع الطريقة القاسمية.
- سبحة تتألف من ثلاث و ثلاثين حبة مع ثلاث شواهد صغيرة.

للسبحة عدّة وظائف و استعمالات نذكر منها :

- الوظيفة الدينية : حيث يتمّ بواسطتها التسبيح دبر كلّ صلاة. ومن بين ومن الصيغ القولية المرتبطة باستخدام السبحة في الإسلام سبحان الله و الحمد لله و الله أكبر (ثلاثا و ثلاثين مرّة) تختم بلا إله إلا الله.
- الوظيفة الجمالية : يتمّ استعمالها في عدّة أحيان على وجه الزينة و التباهي بخاصّة إن كانت ذات قيمة حيث أن لكلّ زيّ سبحة تناسبه كما تستعمل من قبل المتصوّفة حيث تعلق في الرقبة كما يتمّ وضع السبحة على أضرحة الأولياء و الصالحين. و هنالك من يعتمد إلى تعليقها على جدار منزله أو في سيارته..
- وظيفة نفسية : حيث تستعمل كوسيلة و أداة للتهديئة النفسية من خلال التسبيح و ذكر الله "ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب" و هي بذلك تزيل التوتر و القلق.
- و قد تستخدم السبحة كتعويذة ضد السحر أو درءا للعين أو كمجلبة للحظ لدى بعض الثقافات.

- العناصر المادية و اللامادية المصاحبة للممارسة أو المهيكلة لها (الفضاء/ الأزياء/ الأدوات...)

تباشر صناعة السبحة في محلات خاصة باتت اليوم نادرة لعلّ من أبرزها دكانا، هو في ورشة في أن واحد، كائن بسوق الحدادين بباب جديد. لكن بعض الحرفيين يتعاطون هذه الصناعة كمنشط تكميلي غير منتظم أو كهواية لا تقتضي ممارستها فضاء خاصا بها. تستعمل عدّة أدوات و آلات في صناعة السبحة من بينها :

- المربع : باختلاف أشكاله و أنواعه بحسب شكل الحبة المراد الحصول عليها
- المخرطة : (Tour Bois) كانت تستعمل في الماضي مخرطة يدوية أما الآن فتستعمل مخرطة كهربائية.
- المنشار الكهربائي: وهو أساسي حيث يسمح بقصّ الأخشاب وفق أحجام و أشكال مختلفة تحضيراً لخرطها فيما بعد بواسطة المخرطة.
- أما الممارسة اليدوية فتتمثل في تنظيف المادّة الخام (عظم- خشب- قماري- صندل- أبنوز- زيتون- عناب- ريحان- عاج- عنبر...) من الشوائب و صقلها باستعمال الكاغد الساجج. هذا إذا كانت السبحة عادية (أي المادّة الأولية المصنوعة منها الحبات من خشب عادي). في حين أن هنالك أنواع من السبج تصقل حباتها باستعمال زيت الزيتون إن كانت من خشب الزيتون و باستعمال العطور كعطر القماري إن كانت الحبات من القماري و باستعمال عطر الصندل إن كانت الحبات من خشب الصندل و باستعمال عطر الريحان إن كانت الحبات من الريحان أو عطر العنبر إن كانت الحبات من العنبر. و في الأخير تشدّ إلى خيط مبروم يتألف من عدّة خيوط بحسب حجم الحبة.
- أما بالنسبة للعناصر غير المادية المصاحبة للعنصر، فهناك مثل في علاقة بالمادّة الأولية التي تصنع منها بعض السبج، وهي خشب العناب حيث يقول هذا المثل : " عناب يا عناب يا مفرق الأعداء و مجمع الأحاباب "
- أما على صعيد الطقوس و الممارسات المرتبطة باستخدامها، فكثيرا ما تنتظم في الفضاءات المقدسة مثل المساجد و الجوامع و الزوايا و تهيكلها أوقات خاصة يفضل فيها التسبيح، سيما المناسبات الدينية.

- الممارسات العرفية التي تنظم أو تمنع الوصول إلى العنصر

لا وجود لممارسات عرفية تمنع الوصول إلى العنصر

- كَيْفِيَّةُ التعلُّمِ وطرائق النشر بين الأعضاء والتميرير للناشئة

بغية تعلُّم صناعة السبحة يجب أولاً تعلُّم خراطة الخشب و من ثمة يتم التركيز على صناعة السبحة. أما بالنسبة لطرائق التعلم فنتم في إطار النظام الحرفي التقليدي حيث يوكل أمر تكوين الناشئة في الاختصاص المعني إلى ثلثة من أرباب الحرفة المشهود لهم بالكفاءة. كما أن أصول و مبادئ هذه المهنة يتم تناقلها جيلا بعد جيل أبا عن جد.

3-الفاعلون المعنيون بالعنصر

- حملة العنصر من الممارسين له بشكل مباشر

لم يتبق من الحرفيين المختصين في صناعة العنصر بمدينة تونس سوى أربعة أشخاص :
- محمد الحبيب الجوابي 82 سنة: حرفي و صاحب محلّ لصناعة السبح و بيعها بجميع أنواعها وأبناؤه وهم :
- ناصر الجوابي 54 سنة: يتقن جيّدا هذه الحرفة بمختلف مراحلها.
- رمزي الجوابي 44 سنة: يتولّى تشييب مختلف حبّات السبحة، وهو ليس بعامل قارّ و إنما يشتغل في قطاع آخر.
- معز الجوابي 40 سنة: يشتغل على آلة الخراطة.
لكن ممارسة التسبيح اعتمادا على السبحة مازالت متجذّرة في المجتمع التونسي بوصفها جزءا من التقاليد الدينية والاجتماعية التي تحرص الكثير من الجماعات والمجموعات على المحافظة عليها.

- مشاركون آخرون

- إدارة الغابات التابعة لوزارة الفلاحة التي توفر الخشب.
- المزودون بالخشب المستورد من الخارج: خشب الأبنوز من إفريقيا السوداء وخشب القماري و الصندل من (الهند) و خشب الكوك من (تركيا)
- كما يتم استعمال عظام البقر و تحديدا عظمة الساق.
- باعة بعض المواد الأولية مثل الأصباغ.

- منظمات غير حكومية/ المجتمع المدني

من بين الجمعيات التي تعنى بهذه الحرفة نذكر :
- الجمعية التونسية للتراث و البيئة.
- الجمعية التونسية للتوثيق السمعي البصري للتراث المادي و اللامادي.

- هيئات رسمية

- المعهد الوطني للتراث: قسم المسح ودراسة الممتلكات الإثنوغرافية والفنون المعاصرة.
- الديوان الوطني للصناعات التقليدية بتونس.

4- مدى قابلية العنصر للاستمرار: العراقيل والتهديدات

تتمثل المشاكل و المصاعب و العراقيل في :
- عدم وجود اليد العاملة المختصة بسبب عدم الرغبة في تعلُّم هذه المهنة المتعبة نوعا ما.
- مشكلة التسويق : عدم وجود فضاءات لبيع المنتج على الرغم من وجود بعض الإقبال سواء من التونسيين أو من الأجانب.
- مشكلة المواد الأولية : نقص و شحّ في المواد الأولية إضافة إلى غلاء أسعارها باعتبار أن عديد المواد

الأولى يتم توريدها من الخارج كما أن المواد الأولية المحلية بدورها غالية. إلا أنه و رغم كلّ المصاعب و العراقيل تبقى مدى ديمومة و قابليّة العنصر للاستمرار ممكنة بخاصّة إذا ما تمّ التركيز على برامج التثمين وإجراءات الصّون و التي من بينها المشاركة في معارض الصناعات التقليديّة.

5- برامج التثمين وإجراءات الصّون

- المشاركة في صالون الصناعات التقليديّة بالمعرض الدولي بالكرم.
- المشاركة في معرض للصناعات التقليديّة بنابل.
- إحياء الموروث الصوفي عبر عروض متعددة ساهمت في إبراز العنصر في جوانبه المادية والرمزية.
- توظيف السبحة في الأعمال الفنية لدى عدد من الفنانين التشكيليين واستخداماتها الحديثة كجزء من الديكورات والأكسسورات في الفضاءات المبنية وفي السيارات.

6- التوثيق الفوتوغرافي للعنصر



عظام البقر كمادة خام أوليّة



خشب العناب يستعمل كمادة خام أوليّة في صناعة السبحة



بعض الأدوات المستخدمة في خراطة الخشب وصنع السبحة



خرّاطة حبات السبحة



ثقب الشاهد بواسطة المثقاب الآلي



شواهد و حبات سبحة من عظام البقر



شواهد و حبات سبحة من العنبر



خرّاطة بعض حبات السبحة



تمرير حبات السبحة عبر الخيط

7- هوية الشخص المرجعية المعتمدة في استيقاء البيانات

- محمد الحبيب الجوابي 82 سنة : صاحب المحلّ و هو يمارس هذه المهنة منذ عقود، العنوان : 18 نهج الحدادين باب الجديد- تونس.
- ناصر الجوابي 54 سنة : ابن صاحب المحلّ، محمد الحبيب الجوابي، و هو حرفي يمارس الخراطة على (الخشب - العظام...) يعمل مع والده في نفس المحلّ، العنوان : 18 نهج الحدادين باب الجديد- تونس، الهاتف : 71.348839 - الجوال : 55530110.

8-المصادر والمراجع

- المكتوبة

- الصرارفي (سماح)، "استعمالات العنبر"، مجلة الفنون والتقاليد الشعبية، العدد 14، ص. 61- 62.
- أبو سليم (محمد ابراهيم)، "أدوات الحكم و الولاية في السودان"، دار الجيل، بيروت 1992، ص 70.
- قريب الله (حسن الفاتح)، "السبحة مشروعاتها و أدلتها"، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ، ص 10.
- إسماعيل (عبد العزيز)، "المسبحة في التراث العربي الإسلامي"، المأثورات الشعبية، عدد 72، يوليو 2004.
- مهران (إيمان)، "السبحة أو المسبحة أيقونة الذكر والتذكر من الغراند بازار باسطنبول إلى قصر الشوق بالقاهرة"، مجلة الثقافة الشعبية، العدد 33، السنة التاسعة، 2016، ص. 138-147.

- السمعية البصرية

نشير إلى وجود وثاقي من انجاز الجزيرة الوثائقية يتحدّث عن هذه المهنة بالإمكان مشاهدته على الرابط :
<https://www.youtube.com/watch?v=K3vXH0AqCQ0>

- المواد الوثائقية المحفوظة في المتاحف والأرشيفات والمجموعات الخاصة

المجموعات الإثنوغرافية الموجودة بالقصر السعيد.

9-معطيات تقنية حول عملية الجرد

- تاريخ البحث الميداني ومكانه

- 29 و 30 ماي 2017.
- المكان : 18 نهج الحدادين باب الجديد 1008 تونس (محلّ لصناعة السبح و بيعها بجميع أنواعها)، مدينة تونس العتيقة.

- جامع أوجامعو المادّة الميدانية

- محمد المقدم محافظ تراث بالمعهد الوطني للتراث.
- أحمد الطرابلسي رئيس الجمعية التونسية للتراث و البيئة.

- تاريخ إدخال بيانات الجرد

2017 /06 /02

- محرّر البطاقة

محمد المقدم، محافظ تراث.

- المراجعة العلمية

- الناصر البقلوطي/ باحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والتراث الثقافي اللامادي.
- عماد بن صولة: أستاذ بحوث/ أستاذ محاضر في الأنثروبولوجيا الثقافية والتراث الثقافي اللامادي.

- تحيين بيانات الجرد

ماي 2020.